اليمن فى عهود الإسلام الأولى

منذ بداية عهود الإسلام ، وحينما أخذت الرسالة المحمدية السمحة تتوسّع وتنتشر، وجّه صاحبها اهتمامه إلى اليمن ؛ فهذا الإقليم الواسع من الوجهة العامة يعتبر ناحية ذات أهمية بالنسبة للبلدان العربية ؛ وبالنظر لموقعه الجغرافى الهام ، ولأن أهل هذا القطر اشتهروا بالشجاعة والإقدام والثبات على المبادئ وصفاء السريرة ، فضلا عن أنهم مثال النشاط والإخلاص والحفاظ على الكرامة والتراث ، ولهذا نراهم قد قبلوا الدعوة الإسلامية عن صدق وإيمان ، ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبح الإسلام فى أعماقهم متمكناً راسخاً . وكل هذه البوادر الطيبة ، والظواهر النفسية العجيبة ، حدت بالنبى الكريم إلى توجيه اهتمامه لهذا القطر ، وإلى تخصيصه بالتعاليم الإسلامية الجديدة والتوجيه العقائدى الحديث النابع من الشريعة الإسلامية الغراء. فأرسل إليهم خواص أهل دعوته . وصفوة رجال المسلمين المؤمنين ، لتعليمهم الإسلام وقواعده ، ولحضهم على التمسك بأهدابه ، والتظلل بظله . ومما هو ثابت تاريخيًّا أن النبى لم يكن يفضل أحداً من أهله أو أصحابه على علىّ بن أبى طالب ،

ولهذا جعل منه السفير الأول لهذا القطر ، والمسئول المباشر عن شئونه . ومن هنا تمكن من أن يكوّن له فى اليمن مريدين مخلصين ومحبين كثيرين ظلوا إلى آخر لحظة فى حياتهم أوفياء لمبادئهم مخلصين لتعهداتهم .

هذا ويحدثنا التاريخ أن الإمام على بن أبى طالب زار اليمن ثلاث مرات ، وفى المرة الأخيرة وصل إلى «عدن أبْيَن» وذكر ابن هشام أن محمداً (عليه السلام) بعث عليًّا إلى أهل نجران بعام الوفود ، وذلك ليجمع صدقتهم ويقدم عليهم بجزية . وقال كثير : إن محمداً (عليه السلام) أرسل عليًّا إلى اليمن قبل « حجة الوداع » فقدم إلى صنعاء ، وصلى برجالها ، وجمع قبائل همدان وقرأ عليهم كتاب النبى ، فأسلمت همدان جميعها فى يوم واحد ، ولما وصل الخبر إلى النبى خرّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان ... السلام على همدان ...»

وقال على فى ذلك : بعثنى رسول الله وأنا حديث السن . فقلت تبعثنى إلى قوم لا يكون بينهم أحداث ولا علم لى بالقضاء . فقال : « إن الله سيهدى لسانك ، ويثبت قدمك .. »

قال على : فما شككت فى قضاء بين اثنين .

وقبل أن يعود على من اليمن عمر مسجداً بصنعاء وعرف باسمه .

فمما لاريب فيه أن مثل هذه الاتصالات للإمام على باليمن

تركت حبه حيًّا فى نفوسهم ؛ وظل هذا الحب ينمو ويزداد مع الزمن ، حتى إن الإمام الفاطمى « الحسين بن أحمد ابن عبد الله » حين أرسل ابن حوشب « منصور اليمن » من سلمية — سوريا داعياً إلى اليمن أمره أن ينزل « بعدن لاعة » ، لأن فيها بعض من يدين بدعوته ، وعندما وصل إليها وجد كثيراً ممن يدينون له بالولاء ولآل بيته .

ومما تجدر الإشارة إليه أن أنصار على فى اليمن ظلوا يعملون فى أكثر الأحيان على اكتساب الأنصار ، وضمهم إلى صفوفهم ، وحجتهم أن عليًّا وحده أهل للخلافة ، وأولى الناس بمقام رسول الله ، وأحقهم بالإمامة والقيام بأمر الله والأمة ؛ وأن الخلفاء الذين سبقوه قد انتزعوا حق الإمامة والخلافة منه ، وكل هذا يدل على أن التشيع لعلى بن أبى طالب ظل منتشراً ، وقد تجلت مظاهره فى مواقف كثيرة . فلما رحل « عبد الله بن سبأ الصنعانى » إلى مصر بعد أن طاف بالكوفة والبصرة والشام ، التف حوله المسلمون هناك ، لأنه حمل على سياسة الخليفة الثالث عثمان التى كانت مثاراً للسخط فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، ونادى بحب على لأنه أولى من غيره بالخلافة ، فانضم إليه فى مصر عدد كبير ، وفى مقدمتهم « محمد بن أبى بكر » وقد ساعد انضمامه على نجاح ابن سبأ فى

مهمته ، لأنه النجل الأكبر للخليفة المناوئ لعلى بن أبى طالب

ومن الجلى الواضح أن سبب رواج دعوة ابن سبأ فى مصر يعود إلى وجود عدد كبير من اليمنيين فيها ، وهم الذين جاءوا مصر منذ عهد الفتح الإسلامى واستقروا فيها ، وهؤلاء اليمنيون كانوا ممن يحبون عليًا وآل بيته ، ويتشيعون لهم .

ومهما يكن من أمر فإن الذى ساعد على انتشار التشيع فى اليمن جهاد قبائل همدان مع الإمام على فى حروبه ، ويعدّ ما قاله أمير المؤمنين على فى صفين دليلا واضحاً على ذلك : « يا معشر همدان أنتم درعى ورمحى ، والله لو كنت بواباً على باب الجنة لأدخلتكم قبل جميع الناس ... وما نصرتم إلا الله تعالى ، وما أحببتم غيره » ، فقال سعيد بن قيس وزياد بن كعب : « أحببنا الله وإياك ، ونصرنا الله وإياك ، وقاتلنا معك من ليس مثلك ، فارم بنا حيث شئت » .

فلا عجب بعد هذا إذا ما رأينا همدان تضحى بكل غالٍ ونفيس فى سبيل الإمام على مادام أنه عدّها درعه ورمحه . وليس أدل على حبه لها وحسن تقديره لجهادها فى سبيله من هذه القصيدة :

ولما رأيتُ الخيل تُقرع بالقنا فوارسُها حمر النحور دوامى
ونادى ابن هندٍ ذا الكلاع ويُحْصُب وكندة معْ لخمٍ وحى جذام
تيممتُ همدان الذين هم هُمُ إذا ناب أمر جنتى وسهامى

وناديتُ فيهم دعوة فأجابنى فوارس من همدان غير لئام
رجال يحبون النبى ورهطه لهم سالف فى الدين غير أثام
همُ نصرونا والسيوف كأنها حريق تلظى فى هشيم ضرام
فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

هذا ويعد مالك الأشتر النخعى قائد جيوش على من الأمثلة البارزة التى لعبت دوراً مهماً فى الحروب التى خاضها ، وأبلى بلاء حسناً ، وخاصة فى موقعتى الجمل وصفين . ويدل موقفه من التحكيم فى صفين على مقدار إخلاصه وتفانيه فى الحصول على النصر ، فقال عندما رفع جند معاوية المصاحف ووافق جند العراق على التحكيم :

« يا أهل العرق . . . أحين ظن القوم أنكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ، وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزلت عليه ، فأمهلونى ، فقد طمعت فى النصر ، وأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مبطلون ، أم أنتم الآن محقون » . فأجابوا : دعنا منهم يا أشتر ؛ فقال : خُدعتم فانخدعتم . واستمر يحثهم ولكن دون جدوى .

هذا ... وكان البراء بن وفيد العذرى اليمانى من الأمثلة الواضحة التى تدل على حب اليمنيين لإظهار كلمة الحق ، وإغاثة المظلومين والضعفاء ، فقد حارب هذا مع معاوية

فى موقعة صفين ، ولكن البراء نقم على معاوية عندما منع أصحاب على ماء الفرات ، فقام إلى معاوية وقال : سبحان الله العظيم ! حين سبقتموهم إلى الفرات تمنعونهم الماء ، وإن فيهم العبد والأجير والأمة ومن لا ذنب له ، هذا والله أول الجور ، لقد بصرت المرتاب ، وشجعت الجبان ، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك ... فقال معاوية لعمرو بن العاص : اكفنى صديقك الهمدانى لا يفسد على عسكرى ، فقام إليه عمرو فأغلظ له ، فأنشأ البراء يقول :

لعمرُ أبى معاوية بن حرب ... وعمرو مالأيّهما وفـــاءُ
سوى طعن يحار القتيل فيه ... وضرب حين تبتاع الدماء
فلستُ بتابع دينَ ابن هند ... طوال الدهر ما أرسى حراء

وعندما جن الليل لحق البراء بجيش على فظل يقاتل حتى قتل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التشيع ظل متستراً فى بلاد اليمن فترة طويلة ، واستمر المتشيعون فى ولائهم لعلى وبيته بالرغم مما لاقوه من ضغط الحكام والولاة ، وقد ظلت الفرقة الشيعية تعمل فى الخفاء ثم تعود إلى الظهور كلما سنحت لها الفرصة وساعدتها الظروف ، ومما يدل على انتشار هذا المبدأ فى بعض جهات اليمن ، وعلى وجه خاص فى منطقة «عدن لاعة» قول السيد الحميرى معرفاً بنفسه مفتخراً على الفرقة الأباضية :

إن تسأليني بقومي تسألي رجلا ... في ذروة العز من أحياء ذي يمن
حولي بها ذو كُلاع في منازلها ... وذو رعين وهمدان وذو يَزَن
والأزدُ أزدُ عمان الأكرمون إذا ... عُدّت مآثرهم في سالف الزمن
بانت كريمتهم عني فدارهمُ ... داري وفي الرحب من أطانهم وطني
لي منزلان بلحج منزل وسط ... منها ولي منزل للعز في عدن
ثم الولاء الذي أرجو النجاة به ... من كبّة النار للهادي أبي الحسن

ولعل انتشار التشيع والمتشيعين سرًّا وعلانية في بلاد اليمن كان من أهم الأسباب التي دعت الإمام الفاطمي المستور «الحسين بن أحمد بن عبد الله» سنة ٢٦٨ هـ إلى إرسال ابن حوشب «منصور اليمن» من سلمية — سوريا إلى تلك النواحي من اليمن كما سبق أن ذكرنا ، كما كانت من أهم الأسباب التي حملت بعض قبائل اليمن على الانضمام إلى دعوة الإسماعيليين .

وكل هذا يجعلنا نقرر : أن اليمن يعد حصناً منيعاً من حصون الشيعة ، بل مستودعاً من مستودعاتها ، لأن أهله برهنوا في مواقف كثيرة على حبهم لعلي وبنيه ، ويعدّ انتشار التشيع في تلك البلاد وقيام الدولة الإسماعيلية من العوامل التي أضعفت العلاقات التي كانت تربط اليمن بالعباسيين الحاكمين.